# القصة بين الإكمال والتوزيع في القرآن الكريم

**أ- توزيع القصة في القرآن الكريم: منهجه وأسلوبه:**

يرد القصص القرآني في مواضع ومناسبات، وهذه المناسبات التي يساق القصص من أجلها هي التي تحدد مسار القصة، والحلقة التي تعرض منها، والصورة التي تأتي عليها، والطريقة التي تؤدي بها، تنسيقاً للجو الروحي والفكري والفني الذي تعرض فيه، وبذلك تؤدي دورها الموضوعي، وتحقق غايتها النفسية، وتلقي إيقاعها المطلوب(1).

ولذلك يلاحظ الدارسون للقصة القرآنية أنه لا يلتزم فيها بالسرد القصصي، ولكن يلتزم فيها بالوصول إلى الغاية من القصة، ووفقاً لذلك الالتزام نري من القصص القرآنية ما تقدم كاملة الأحداث والمواقف في معرض واحد – كما في قصة يوسف – ومنها ما تقدم في حلقات، يخصّ بكل حلقة منها معرض يتطلب هذه الحلقة من القصة فحسب. ولا مانع في أثناء ذلك من تكرار موقف مشترك بين حلقتين..

ولا شك في أن هذا المنهج من أبرز الخصائص الفنية في القصة القرآنية التي يعجز المخلوق عن مجارات البيان القرآني فيها، لِمَا يحوج إلى استجماع القوي الفنية جميعاً في وقت واحد، حتى لا يسقط موقف في معرض أو يزاد موقف، وحتى يتمكن من إدراك أبعاد المعرض وحصر متطلباته من الأحداث، والقدرة علي حشد تلك الأحداث واستهلالها من القصة بحيث لا يهتز المسار الفني فيها، وبحيث لا يتناقص حدث في حلقة سابقة مع حدث في حلقة لاحقة(2).

ومن هنا ظنّ بعض الدارسين أن هنالك تكرار في القصص القرآني، لأن القصة

الـواحدة قـد يتكـرر عرضها في سور شتي ؛ ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة، أو حلقة من قصة قد تكررت في صورة واحدة، من ناحية القدر الذي يساق، وطـريقة الأداء في السياق، وإنه حينما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه ينفي حقيقة التكرار[٣].

وعـلى الـرغم من أن هذه الخصيصة إحدى أسرار الإعجاز القرآني، إلا أن هناك مـن يـزعم أن في القـصة القـرآنية خلقاً للحوادث أو تصرفاً فيها، يقصّد به إلى مجرد الفـن - بمعنـي التزويق الذي يتقيد بواقع، وأن الشخصية في القصة القرآنية ليست حقيقـية وإنـما هـي شخـصية فنـية اخـترعها البيان القصصي، ومن ثم فهي في تلك الحلقـة غـيرها في الحلقـة الأخرى وإن اتفقت معها في التسمية، ومن ثم فالأحداث التـي تدور في تلك الحلقة لا تمت بِصِلةٍ تاريخية ولا واقعية للأحداث المماثلة لها التي تدور في الحلقة الأخرى..

والحقـيقة أن عـرض الشخـصية الـواحدة في أكثـر من معرض ليس تكراراً ولا تناقـضاً، وإنـما هـو - الاسـتجابة للأحـداث والمواقـف والغايـة مـن القـصة، لأن الشخـصية - كما قرّرنا من قبل في معرض الحديث عن الشخصية في القصة القرآنية - ليست مقصودة لذاتها، ولأن عرض الحديث كذلك - ليس مقصوداً لذاته، و إلا لجمعـت كـل أحداثها، ورتبت ترتيباً زمنياً أو فنياً، ثم ذكرت مع شخصيتها في قصة واحدة .. و إلا أصبح لكل قصة معرض واحد تقدم فيه كاملة الأحداث والمشاهد، تطلـبها المعـرض كاملة أو لم يتطلبها .. ولم يسرّ القرآن هذا المسار في قصصه، ولكنه يعـرض كاملـة أو لم يتطلـبها .. ولم يسرّ القرآن هذا المسار في قصصه، ولكنه يعرض للشخـصية مـع حـدث معين من أحداثها فيمزج بينهما، ثم يقدم الشخص متفاعلاً بـذلك الحـدث لا غـير، لـتري العظـة والعـبرة مـن خلال هذا الأنموذج مع ذلك الحـدث، ثـم تنتهـي المشاهد المصورة، وتطوي القصة عند ذلك، وتنتقل إلى موقف آخـر، فـإذا عـرض بعد ذلك ما يستدعي هذه الشخصية ذاتها مع حدث آخر رأيت حلقـة أخـري - أو قصة أخري - ذات مضمون جديد . وإن تراءت تكراراً لما سبق في سورة أخري..

فشبهة التكرار – كما نرى – ما جاءت إلا من تكرار الشخصية، وعدم الوعي بقيمتها في القصة القرآنية (1).

ولقد حظي هذا الموضوع بجهود البلاغيين والنقاد قديماً وحديثاً، واستغرق قدراً كبيراً من جهدهم، وما من مؤلف في البلاغة والنقد قديماً وحديثاً إلا تناول هذه الظاهرة في القصة القرآنية، ولقد انقسم الباحثون إلى فريقين الأول يري أن التكرار منهج ثابت من مناهج القرآن، ولا يوجد فقط في القصة القرآنية وأنباء الرسل، وأحاديث الأقوام الغابرين؛ بل يوجد في كل ما تناوله كتاب الله العظيم قياماً بالرسالة التي أسندها الله إليه وأنزل آياته من أجلها، أما الفريق الآخر فينفي التكرار تماماً، وفيما يلي نوضح أهم آراء هذين الفريقين:

يقول صاحب البرهان: " لقد غلط من أنكر كونه ( أي التكرار ) من أساليب الفصاحة، ظناً أنه لا فائدة له، وليس كذلك بل هو من محاسنها،لا سيما إذا تعلق بعضه ببعض، وذلك أن عادة العرب في خطاباتها، إذا أبهمت بشيء إرادة لتحقيقه وقرب وقوعه، أو قصدت الدعاء عليه، كرّرته توكيداً، وكأنها تقيم تكراره مقام المقسَّم عليه أو الاجتهاد في الدعاء عليه، حيث تقصد الدعاء ؛ وإنما نزل القرآن بلسانهم، وكانت مخاطباته جارية فيما بين بعضهم وبعض، وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة . وعلي ذلك يحتمل ما ورد من تكرار المواعظ والوعد والوعيد، لأن الإنسان مجبول من الطبائع المختلفة، وكلها داعية إلى الشهوات، ولا يقمع ذلك إلا تكرار المواعظ والقوارع، وقال تعالي: " وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ " (2)وبذلك تكون الفائدة العظمي من التكرار هي التقرير، وقد قيل: الكلام إذا تكرّر تقرر، وقد أخبر الله سبحانه بالسبب الذي لأجله كرر الأقاصيص والأخبار في القرآن فقال: " وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ "( القصص:٥١)،وقال:" وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا" ( طه:١١٣)، وحقيقته إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معني، خشية تناسي الأول، لطول العهد به ثم ينتقل " صاحب البرهان " إلى تكرار القصص في القرآن

الكريم، كقصة إبليس في السجود لآدم، وقصة موسي وغيره من الأنبياء، ويقول إنما هي تكررت لفائدة خلت عنه في الموضع الآخر وهي أمور:

**أحدهما**: أنه إذا كرر القصة زاد فيها شيئاً، ألا تري أنه ذكر الحية (٦) في عصا موسي عليه السلام، وذكرها في موضع آخر ثعباناً (٧)، ففائدته أن ليس كل حية ثعباناً، وهذه عادة البلغاء، أن يكرر أحدهم، في آخر خطبته أو قصيدته كلمة، لصفة زائدة..

**الثانية**: أن الرجل كان يسمع القصة من القرآن ثم يعود إلى أهله ثم يهاجر بعده آخرون يحكون عنه ما نزل بعد صدور الأولين، وكان أكثر من آمن به من المهاجرين، فلولا تكرار القصة لوقعت قصة موسي إلى قوم، وقصة عيسي إلى آخرين، وكذلك سائر القصص، فأراد الله سبحانه وتعالى اشتراك الجمع فيها فيكون فيه إفادة القوم، وزيادة تأكيد وتبصرة، لآخرين وهم الحاضرون.

**الثالثة**: تسليته لقلب النبي – صلي الله عليه وسلم – مما اتفق للأنبياء مثله مع أممهم . قال تعالى: " وَكُـلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ "( سورة هود: ١٢٠).

**الرابعة**: أن إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة لا يخفى ما فيه من الفصاحة.

**الخامسة**: أن الدواعي لا تتوفّر على نقلها كتوفّرها على نقل الأحكام فلهذا كررت القصص دون الأحكام.

**السادسة**: أن الله تعالى أنزل هذا القرآن، وعجز القوم عن الإتيان بمثل آية لصحة نبوة محمد صلي الله عليه وسلم، ثم بيّن وأوضح الأمر في عجزهم، بأن كرر ذكر القصة في مواضع، إعلاماً بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم جاءوا، بأي عبارة عبّروا..

**السابعة**: أنه لما سخّر العرب بالقرآن قال: " فأتوا بسورة من مثله "(البقرة:٢٣) ثم قال في موضع آخر: " فأتوا بعشر سور " ( هود:١٣)، فلو ذكر قصة آدم مثلاً في

موضع واحد واكتفي بها لقال العربي بما قال الله تعالي: " فأتوا بسورة من مثله" " إيتونا أنتم بسورة من مثله "، فأنزلها سبحانه في تعداد السور، دفعاً لحجتهم من كل وجه..

**الثامنة**: أن القصة الواحدة من هذه القصص، كقصة موسي مع فرعون – وإن ظن أنها لا تغاير الأخرى – فقد يوجد في ألفاظها زيادة ونقصان وتقديم وتأخير، وتلك حال المعاني الواقعة بحسب تلك الألفاظ ؛ فإن كل واحدة لابد وأن تخالف نظيرتها من نوع معني زائد فيه، لا يوقف عليه إلا منها دون غيرها؛ فكأن الله تعالى فرّق ذكر ما دار بينهما وجعله أجزاء، ثم قسّم تلك الأجزاء علي تارات التكرار لتوجد متفرّقة فيها ؛ ولو جمعت تلك القصص في موضع واحد لأشبهت ما وجد الأمر عليه من الكتب المتقدمة ؛ من انفراد كل قصة منها بموضع كما وقع في القرآن بالنسبة ليوسف عليه السلام خاصة، فاجتمعت في هذه الخاصية ؛ من نظم القرآن عدة معانٍ عجيبة:

**منها**: أن التكرار فيها مع سائر الألفاظ لم يُوقع في اللفظ هجْنة ولا أحدث مللاً، فباين بذلك كلام المخلوقين ...

**ومنها**: أنه ألبسها زيادة ونقصاناً وتقديماً وتأخيراً، ليخرج بذلك الكلام أن تكون ألفاظه واحدة بأعيانها، فيكون شيئاً معاداً ؛ فنزّهه عن ذلك بهذه التغييرات ..

**ومنها**: أن المعاني التي اشتملت عليها القصة الواحدة من هذه القصص صارت متفرقة في تارات التكرير فيجد البليغ – لما فيها من التغيير – ميلاً إلى سماعها، لما جُبلت عليه النفوس من حبّ التنقّل في الأشياء المتجدّدة التي لكل منها حصة من الالتذاذ به مستأنفة.

**ومنها**: ظهور الأمر العجيب في إخراج صور متباينة في النظم بمعني واحد؛ وقد كان المشركون في عصر النبي صلي الله عليه وسلم يعجبون من اتساع الأمر في تكرير هذه القصص والأنباء مع تغاير أنواع النظم، وبيان وجوه التأليف، فعرفّهم الله سبحانه بأن الأمر بما يتعجبون منه مردود إلى قدرة من لا يلحقه نهاية، ولا يقع علي

كلامه عدد[٨]؛ لقوله تعالى: " قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا" (سورة الكهف: ١٠٩)، وكقوله: " وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ " ( سورة لقمان ٢٧) ويري " الخطابي": أن التكرار بلاغة. وترك التكرار في الموضع الذي يستدعيه إخلال بالبلاغة فيقول: " تكرار علي ضربين: أحدهما مذموم، وهو ما كان مستغني عنه غير مستفاد به زيادة معني لم يستفيدوه بالكلام الأول لأنه حينئذ يكون فضلاً من القول ولغواً وليس في القرآن شيء من هذا النوع ؛ والضرب الآخر: ما كان بخلاف هذه الصفة، فإن ترك التكرار في الموضع الذي يقتضيه وتدعو الحاجة إليه فيه، بإزاء تكلّف الزيادة في وقت الحاجة إلى الحذف والاختصار، وإنما يحتاج إليه ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها، ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها والاستهانة بقدرها "[٩].

وقد وقف " القاضي عبد الجبار" عند التكرار في القصص القرآني، وردّ طعن الطاعنين بسببه، وبيّن أنه من الوجوه التي تجلّت فيها براعة القرآن وظهر فيها إعجازه، كما بيّن أن هذا التكرار كان تسلية للرسول – صلي الله عليه وسلم – وتثبيتاً لفؤاده علي مدي ثلاث وعشرين سنة هي مدة نزول القرآن، كما ذكر أن التكرار المعيب هو ما يكون في الموطن الواحد أما إذا تعددت مواطنه فإنه بلاغة وفصاحة. ولهذا قال تعالى:" وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ " ( هود: ١٢٠ ).

كما يرى " القاضي عبد الجبار " أنه قد يكون السرّ في هذا التكرار في قصص القرآن، أن يكون تسجيلاً لكلام السابقين والأحداث التي وقعت لهم، فيكون هذا التكرار مختصاً بكل حالة، فيقول في ذلك: " على أن كثيراً مما ذكره الله تعالى في قصص الأنبياء المتقدمين، لا يمتنع أن يكون تكرر منهم في أوقات فكان ذكره بحسب تكراره، وذلك مما يدل علي عظم شأن القرآن أيضاً"[١٠].

ويقول " مصطفي صادق الرافعي " في تعليقه علي هذه الظاهرة: " لقد خفي

هـذا المعنـى ( التكـرار ) عـلى بعـض الملحـدة وأشباههم ومن لا نفاذ لهم في أسرار العـربية ومقاصـد الخطـاب والـتأتي بالـسياسة البيانـية إلى هذه المقاصد، فزعموا به المزاعم السخيفة وأحالوه إلى النقص والوهن، وقالوا إن هذا التكرار ضعف وضيق مـن قـوة وسـعة، وهـو - أخزاهم الله - كان أروع وأبلغ وأسري عن الفصحاء من أهـل اللغـة والمتصرفين فيها، ولو أعجزهم أن يجيئوا بمثله ما أعجزهم أن يعيبوه لو كان عيباً"[11]

ويقـول أيـضًا: وفي بعـض ذلـك التكـرار معنـي آخر فطن إليه بعض علمائنا ولم يكـشف لهـم عـن سره، وأول مـن نـبّه عليه الجاحظ في كتاب ( الحيوان ) إذ قال " ورأيـنا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحـي والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكي عنهم جعله مبسوطاً وزاد في الكلام "[12].

وأمـا ( أبـو هلال العسكري ) فقد ذكر التكرار عند حديثه عن الإطناب، ويبدو أنـه قـد نقل عبارة الجاحظ، حيث بيّن أن التكرار لا يصار إليه إلا إذا اقتضاه المقام، وأنـه قـد كثـر في القـرآن في خطاب بني إسرائيل لقلة فهمهم فيحتاجون إلى الشرح والإيـضاح والتأكيد، بينما كان الخطاب للأعراب، بالإشارة والوحي لعدم حاجتهم إلى ذلك، ومثل له من القرآن وفصيح الشعر"[13].

وإذا كـان تفـسير هـؤلاء الباحثـين المتقدمـين لـبلاغة التكـرار في القـرآن يتـسم بالتعمـيم، وتكـاد معظمهـا تـتفق علي أن التكرار لا يصار إليه إلا إذا اقتضاه المقام: كالتأكـيد والـوعد والوعـيد، فـإن " جـار الله الزمخشري " قـد نهج نهجاً يقوم علي التحلـيل النفـسي والـتعمق والتغلغل في كشف الأسرار النفسية والبواعث البلاغية التـي بـسببها كـان هـذا التكرار، في كلام الله عز وجل وفي القصص التي ساقها، إذ يـري الزمخشري " أن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس، وتثبيتاً لها في الصدور " .. ومـن ذلـك قـوله تعـالي: " إن في ذلـك لأية وما كان أكثرهم مؤمنين " [14] فيقول الزمخـشري: " كرّر في هذه السورة في أول كل قصة وآخرها هذه الآية لأن كل قصة

كتنزيل برأسه، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها، فكانت كل واحدة منها تدلي بحق في أن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها، وأن تختتم بما اختتمت به، ولأن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس "[١٥].

وهكذا في كل ما تقدم رأينا البلاغيين يتفقون علي بلاغة ما جاء في القرآن الكريم من آياته وقصصه مكرراً في أكثر من موطن ومردداً في أكثر من موضع، وأن تكرار القصة الواحدة في القرآن الكريم وثيق الصلة بمنهجه القصصي، إذ هو يخدم غرضين في آن واحد:

**١ـ غرض فني**:

ويتمثل في تجدد أسلوبها إيراداً وتصويراً، والتفنّن في عرضها إيجازاً وإطناباً، والتنوّع في أدائها لفظا ومعنى ..

**٢ـ غرض نفسي**:

وذلك بما له من تأثير في النفوس، لأن المكرّر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان ودوافعها كما هو مقرّر في علم النفس[١٦].

ومن آراء الفريق الآخر الذي لا يقرّ بوجود التكرار مطلقاً في القرآن الكريم نستعرض رأي الدكتور " محمد أحمد خلف الله " الذي يذهب إلى عجز العقل الإسلامي عن أن يفهم الأسرار التي من أجلها كان التكرار . يرجع إلى أنه اعتمد المذهب التاريخي في فهم القصص القرآني، ومن هنا رأي الكثيرون اعتبار القصص القرآني من الآيات المتشابهات . يقول الطبري " المتشابه هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرار فقصة باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني وقصة باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني".

ويقول: " ولو إن العقل الإسلامي أقام فهمه للقصص القرآني علي أساس فني وأدبي لما وقف هذه الوقفة ولعرف منذ اللحظة الأولي، الذي عدّه تكراراً ليس من

التكـرار في شيء لأن هـذه المـواد التاريخـية غير مقصودة من القصص، وأن مقاصد القـرآن مـن مـواعظ وعـبر ومن إنذارات وبشارات تختلف في موطن عنها في آخر، ومـن هـنا كـان الاخـتلاف. لأن اخـتلاف المقاصد يدفع من غير شك إلى اختلاف الـصور الأدبـية .. فقـصد القـرآن مـن قصة موسي في سورة " طه " غيره من قصة مـوسي في سورة " النمل "، وقصة موسي في سورة " طه " قصة مستقلة، وقصته في سـورة " النمل " قصة مستقلة . ومن الوجهة الأدبية هذه قصة وتلك قصة أخري . وعلي هذا فلا تكرار ولا اختلاف ولا تشابه "(١٧) .

وأمـا عن رأيه في وحدة الشخصية فيقول: " ليس من شك في أنك لا تستطيع أن تغلـب الاتفـاق في الشخـصية عـلي بقية العناصر القصصية، من خلاف في المقاصد والأغـراض، واخـتلاف في الـصور والألفـاظ، واخـتلاف في النـسق والترتـيب، واختلاف في فن البناء والتركيب – ومن هنا نحسّ أن الاختلاف القائم علي أساس الأحـداث أيـضاً يـزول، فكـوْن البـشارة بالغلام مرة لسارة وأخري لإبراهيم عليه الـسلام لا يعتـبر مـن الاختلاف لأن هذه قصة وتلك قصة، وكذلك غير هذا المثال من آيات القصص الذي يتغاير فيه التعبير "(١٨)

ويقـول: " إن هـذا الـوجه مـن الرأي يبطل ذلك القول الخاطيء الذي يقول به المستـشرقون مـن تطور الشخصية القصصية في القرآن الكريم بتطور أغراض النبي علـيه الـسلام ودوافعـه والظـروف المحـيطة بـه والمناسـبات التي تدعوه إلى بعض المواقـف . ذلك التطور الذي يمثلون له ما حدث في شخصية إبراهيم عليه السلام، لأن أسـاس هـذا القـول إن الوحدة القصصية تقوم علي وحدة الشخصية وهو قول باطـل، يـريحنا مـنه تقريـر أن هذه الوحدة، إنما هي وحدة الغرض والعبرة لا وحدة الـشخص، ومـن هـنا تكـون هـذه قـصة وتلـك قـصة، وتكـون أقاصيص متعددة لـشخص واحـد عـن موقـف واحـد، لـتعدد الأغـراض واخـتلاف صور العرض باختلاف المقصد والغرض "(١٩).

وغني عن البيان أن المقدمة التي بنى عليها " الدكتور خلف الله " حكمه في عدم

التزام القرآن الكريم للواقع في قصصه غير صحيحة. والمقدمة تتمثل في إقراره بوجود مفارقات بين ما يكرر من أحداث القصة الواحدة، وسوف ندفع هذه الشبهة عند عرضنا لقصة موسي موزعة في إحدى عشرة سورة من سور القرآن الكريم، لننفي وجود هذه المفارقات التي لا يبررها علي افتراض وجودها ما يقتضيه العمل الفني والأدبي من تصرّف في عناصر الأحداث أو الشخصية . لأن هذا – وإن جاز في القصص الأدبي التاريخي – لا يجوز بحال في القصص القرآني والله تعالى يقول: " لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ "( سورة يوسف:١١١).

إن الجمال الفني في قصص القرآن لا يعتمد علي الخلق والابتكار والخيال ولكن علي صدق الرواية، وإبداع العرض، وجمال الأداء.

أما من ناحية الوحدة القصصية فيقول " الدكتور خلف الله " باستحالة الجمع بين ما جاء من قصة إبراهيم عليه السلام مفرقاً بين سور " البقرة "و " هود " و " الأنبياء " في وحدة قصصية وكذلك قصص غيره من الأنبياء.

ولقد انطوى هذا القول علي مغالطات جسيمة لأن الوحدة القصصية، حسب ما تعارف عليه – النقاد – " هي وحدة بطل القصة أو وحدة موضوعها، ووحدة البطل هنا هي " إبراهيم " في سورة البقرة، في بداية نبوته عندما أراد أن يطمئن قلبه فسأل ربه برهاناً على كيفية البعث، وهي " إبراهيم " أيضاً في سورة الأنبياء عندما أراد أن يضع بين أعين قومه برهانًا علي ضلالهم في عبادة الأصنام: " فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ" ( الأنبياء: ٥٨)وكاد ينجح في مهمته مع قومه لولا أنهم نكسوا علي رؤسهم .. وهي " إبراهيم " أيضاً، في سورة مريم حينما رأي نفسه عاجزاً عن هداية أبيه وهو أقرب الناس إليه وأكرمهم عليه إلى الإيمان بدعوته "[٢٠].

أما وحدة الموضوع فهي بالجملة طلب " إبراهيم " وهو يباشر دعوته أن يقتنع

هو بها بينه وبين نفسه، ثم محاولته أن يقنع بها قومه ثم عجزه عن إقناع أبيه وما تخلل ذلك من إلقائه في النار، وإقدامه علي ذبح إسماعيل ونجاته من النار ونجاة ابنه من الذبح، وهجرته إلى مكة مع زوجته هاجر وبناء الكعبة وأخيراً مشيئة الله وقدرته في الهداية والإرشاد..

هذه هي الوحدة القصصية في قصة إبراهيم ومثلها في قصص الأنبياء[٢١] وأما مَن يقول بالتعارض في قصص القرآن من المحدثين، فإنما يعني تناقضاً، في حين أن التناقض معدوم، لانعدام شروطه المتفق عليها عند علماء المنطق: وهي الاختلاف بين قضيتين في الكم والكيف والجهة، والاتفاق بينهما في وحدات ثمانية: الموضوع والمحمول والزمان والمكان والإضافة والشرط والقوة والفعل والجزء والكل[٢٢].

وإذا أمعنّا النظر فيما يبدو لنا من اختلاف بين سورتين أو أكثر في القصة القرآنية الواحدة علي ضوء هذه القاعدة المنطقية، فلابد أن نهتدي إلى انعدام وحدة فأكثر من تلك الوحدات التي لا يكون التناقض إلا بتوفرها معاً . وإذاً فلا تناقض.. وذلك ما أردنا توضيحه فيما يتعلق بقضية قد شغلت حيّزاً في فكر المفكرين والباحثين نخلص إلى أن ما توهمه البعض من أنه تكرار لا ينقص من عظمة وإعجاز القصص القرآني كما نودّ أن نقول إن التكرار لم يقع مطلقاً في قصص القرآن الكريم، وإنما التكرار وقع على بعض الحلقات في القصة ليس فيها كلها فورود القصة الواحدة – في معظم الحالات – مكررة في مواضيع شتي لا يتناولها كلها – غالباً – إنما هو تكرار لبعض حلقاتها ومعظمه إشارات لموضع العبرة فيها أما جسم القصة كلها فلا يكرر إلا نادراً، ولمناسبات خاصة في السياق اقتضاها الموقف الذي نزلت فيه وهذا ما يؤكده علماء التفسير عند ذكرهم أسباب النزول لكل قصة علي حدة وإن كانت جميعها متداخلة أو تمثل مرحلة واحدة .. وأن الإنسان حين يقرأ هذه الحلقات المكررة من القصة الواحدة ملاحظاً السياق الذي وردت فيه يجدها مناسبة لهذا السياق تماماً في اختيار الحلقة التي تعرض هنا أو هناك، وفي طريقة عرضها كذلك، علي أن هناك ما يشبه أن يكون نظاماً بحسب ترتيب نزولها – فمعظم القصص يبدأ بإشارات

مقتضبة ثم تطول هذه الإشارات شيئاً فشيئاً، ثم تعرض حلقات كبيرة تكوّن في مجموعها جسم القصة – وقد تستمر الإشارات المقتضبة فيما بين عرض هذه الحلقات الكثيرة عند المناسبات – حتى إذا استوفت القصة حلقاتها عادت هذه الإشارات هي كل ما يُعرض منها[٢٣]

وفيما عدا التحليل النادر الذي يكرر بلفظه لهدف مقصود، نجد أن الظاهرة الحقيقية ليست هي " التكرار " وإنما هي التوزيع، ولنتتبع ذلك في بعض قصص القرآن:

١ – لنتأمل معاً قصة " موسي عليه السلام " في معارضها المختلفة استيضاحاً عند التزام البيان القرآني لمنهجه، وتقديرًا لتلك الخصيصة الفنية في القصص القرآني نلاحظ:

**(أ) إن المواطن القرآنية التي ذكرت فيها قصة موسي - لا موسي فحسب** – تبلغ إحدى عشرة سورة وهي: ( البقرة – المائدة – الأعراف – يونس – الكهف – طه – الشعراء – النمل – القصص – غافر – النازعات ) منها سورتان مدنيتان هما ( البقرة والمائدة )..

ويلاحظ أن ما جاء في البقرة إنما هو في ثنايا قصة بني إسرائيل الممتدة عبر تاريخ طويل مع موسي وغير موسي، فذكر طرف من قصة موسي معهم في سورة البقرة جاء عرضاً في أثناء تذكير الله إياهم بما كان منه من إكرام لهم، وما كان منهم من عناد وصد عن دين الله، وكفران بأنعم الله سبحانه: " وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ " ( البقرة: ٥٠ )

وقد وردت تفصيلات هذه النجاة في السور المكيّة التي نزلت من قبل أما هنا فهي مجرد التذكير لقوم يعرفون القصة . سواء من القرآن المكي، أو من كتبهم وأقاصيصهم المحفوظة . إنما يذكرهم بها في صورة مشهد، ليستعيدوا تصورها، ويتأثروا بهذا التصور، وكأنهم هم الذين كانوا ينظرون إلى فرق البحر، ونجاة بني

إسرائيل بقيادة موسي – عليه السلام – علي مشهد منهم ومرأى، وخاصية الاستحياء هذه من أبرز خصائص التعبير القرآني العجيب"[٢].

**(ب) إن السور التي تعرضت لقصة موسي منها عشرين مشهداً هي:**

١- ما أحاط بولادة موسي من أحداث ودفعت فرعون إلى تقتيل من يولد ذكراً لبني إسرائيل.

٢- خوف الأم علي وليدها وما أوحي به الله إليها

٣- وقوع موسي في يد فرعون وموقف امرأته منه.

٤- إشفاق أمه عليه وبحثها عنه.

٥- إعادته إليها لترضعه بعد أن يمتنع عن المرضعات .

٦- بلوغه مرحلة الشباب وما كان منه في تلك الفترة، من معاونة الإسرائيلي علي قتل المصري، ثم فراره حين علم بائتمار القوم به .

٧- اتجاهه إلى مدين، والتقاؤه شيخ مدين، وتزوجه إحدى ابنتيه.

٨- عودته إلى مصر بأهله وما وقع في رحلة العودة.

٩- تكليفه بالرسالة، وتخوّفه من لقاء فرعون، وطلبه من الله أن يعينه بهارون أخيه.

١٠ – مواجهة موسي لفرعون

١١ – إيمان السحرة .

١٢ – خروج موسي ببني إسرائيل من مصر، وتعقّب فرعون لهم.

١٣ – مطالبة بني إسرائيل موسي أن يجعل لهم صنماً .

١٤ – دعوتهم إلى دخول الأرض المقدسة.

١٥ – معاقبتهم بالتيه .

١٦ – خروج موسي لميقات ربه مستخلفاً هارون في قومه .

١٧ – لقاء موسي بربه وعودته.

١٨- غضب موسي لاتخاذ بني إسرائيل العجل.

١٩- طلبهم رؤية الله جهرة .

٢٠- استسقاء موسي لقومه.

هـذه هي قصة موسي مع بني إسرائيل من مبدئها إلى منتهاها، وهي لم تأت كاملة في موضع واحد من القرآن الكريم، بل اشتملتها إحدى عشرة سورة واختصت كل سـورة بعـدة مشاهد منها – علي حسب ما يقتضيه السياق – بحيث تبدو في تفردها قصة مستقلة متكاملة البنيان واضحة الحدود.

فـإذا أخـذنا كـل حلقـة مـن تلكـم الحلقـات، ونسقناها مع غيرها، رأينا القصة الشاملة لحياة موسي كلها مع بني إسرائيل، متكاملة البنيان، متلاحمة النسج، تربطها الـوحدة بمخـتلف مظاهـرها – عـلي الرغم من توزعها هذا التوزّع – سواء وحدة الموضـوع، أو وحدة السياق التعبيري، أو وحدة الجو النفسي .... دون أن نري فيها تكـراراً، أو تحـتاج إلى توضـيح أو تبـيين، وهذا إحكام وقدرة لا طوق لمخلوق علي السير في طريقها[٢٥].

وسـنكتفي فـيما يـلي بعـرض المـشاهد الـسبعة الأولي ( مـن الولادة إلى البعث ) وسنجد أنها قدمت في سورتين في معارض مختلفة، وبتفاوت فيما بين كل موضع هما سورة ( طه ) وسورة ( القصص).

أما لقطات ( القصص ) فيبرزها قوله تعالي:

١ - " إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْـنَاءهُمْ وَيَـسْتَحْيِي نِـسَاءهُمْ إِنَّـهُ كَـانَ مِـنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُـرِيدُ أَن نَّمُـنَّ عَـلَى الَّذِينَ اسْتُـضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُـمْ أَئِمَّـةً وَنَجْعَلَهُـمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ".

٢ - " وَأَوْحَيْـنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ".

٣- " فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ".

٤- " وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ".

٥- " وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ".

٦- " وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ".

٧- " وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى

الظِّـلِّ فَقَـالَ رَبِّ إِنِّي لِمَـا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَـتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَـفْ نَجَـوْتَ مِـنَ الْقَـوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَـتْ إِحْـدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَـمَانِيَ حِجَـجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللهُ مِـنَ الـصَّالِحِينَ قَـالَ ذَلِـكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ "( سورة القصص: الآيات من ٤-٢٨).

**ولقطات (طه) يبرزها قوله تعالي:**

١، ٢: " وَلَقَـدْ مَنَـنَّا عَلَـيْكَ مَرَّةً أُخْرَى إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ .

٣: " فَلْـيُلْقِهِ الْـيَمُّ بِالـسَّاحِلِ يَأْخُـذْهُ عَـدُوٌّ لِّي وَعَـدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي" .

٤: " إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ ".

٥: " فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ".

٦: " وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا " .

٧: " فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ " ( سورة طه: الآيات من ٣٧-٤٠).

واضح من هذه النظرة ما بين الحلقتين من اختلاف بيّن، يقرره السياق: فالمشاهد في سـورة القـصص، بـناء قصصي مقصود ليرى بنو إسرائيل منها فضل الله عليهم، ويـري فيها غير بني إسرائيل أنموذجاً بشرياً يحركه الصراع بين الحق والباطل ولكن الله يـتدخل المـرة بعد الأخرى ليوجه الصراع في الوجهة التي تحقق النصر في النهاية للحق وأعوانه..

أمـا في سـورة " طـه " فالمـشاهد لا تعـدو أن تكـون إشارات سريعة تلفت نظر

موسي إلى وقوف الله بجانبه فيما سبق، مما يؤكد له أنه سبحانه سوف يكون بجانبه في كـل خطوة تالية مهما بدا فيها من صعوبات ومشتقات، ولذلك فإن هذه المشاهد إنما جـاءت بعـد أن كلـف مـوسي بتبليغ فـرعون ما أرسل به إليه، فأبدى موسي عليه السـلام تخـوّفه من فرعون، وطلب من الله أن يشدّ أزره بهارون أخيه، فاستجاب له الله ممتـناً علـيه بفـيض نعمـه المتوالي، مشيراً بذلك إلى ما يستوجبه من تضحيات، في سبيل الله المنعم الكبير[٢٦].

فهـي كـما نـرى – ليست تكـراراً للقصة، ولكنها عدة إشارات اعترضت قصة مـوسي في سورة " طه " لما ذكرت من أسباب – ثم هي – كما نرى – حديث خاص إلى مـوسي علـيه الـسلام يذكـره بقـدرة الله التي لا تتناهي ولا تحد . ومن ثم كانت تلكـم اللقطات مجملة إجمالاً عجيباً . بحيث لا يكاد الإنسان يحسّ بأن هناك فاصلاً اعترض مسار الأحداث الطبيعي، وبحيث لا تسير المشاهد في طريق قلق، وإن كان هـو المسار الطبيعـي، فلو زادت هذه اللقطات بعض التفصيل لانقطع الخيط الذي يربط القارئ بالقصة الأصلية، ولو أجملت اللقطات أكثر من ذلك – وهو غير ممكن البـتة – أو حـذفت وسـارت القـصة في طريقها من غير اعتراض لأصبحت القصة قلقة، ولأصبح بناؤها مهلهلاً[٢٧].

لا شـك أن توزيع القصة الواحدة في عدة سور يؤدي إلى اختلاف عوامل التأثير في الـنفس الإنسانية، وذلك لتجدّد الأسلوب في الأداء تجدّداً يمدّ المشاعر بنشاط لا يفـتر. فهـذا عـرض جديـد لقـصة " نـوح" في سـورة (القمر)، وقد سيقت لإنذار المُعْرِضـين عـن رسـالة محمـد صلى الله علـيه وسـلم – بما أصاب قوم "نوح" أول المكذبـين برسالات السماء – من نكال وعذاب . وهي في هذه السورة الحلقة الأولى مـن خمـس حلقـات جسّمت كلها مصارع قوم نوح وعاد وثمود ولوط وفرعون في جو مفزع رهيب:

" كَـذَّبَتْ قَـبْلَهُمْ قَـوْمُ نُـوحٍ فَكَذَّبُـوا عَـبْدَنَا وَقَالُـوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُـوبٌ فَانتَـصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء

عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ "( القمر: ٩-١٦).

وأخصّ ما يمتاز به أسلوب العرض هنا: الإيجاز البليغ، والإيقاع الموسيقي السريع، ولا شك أن للرنين الصوتي أثره القوي في تصوير الحادثة، شأن القصص الذي نزل في الفترة الأولي للدعوة . فقد كان يعتمد علي الإيجاز والموسيقا اللفظية الأخاذة، وإبراز الحوادث لزلزلة المشركين من موقف العناد.

وقد ذكر الله قصة نوح وما كان من قومه في عشر سور، وهذا التوزيع مقصود في القرآن، لأنه ليس الغرض من عرض القصة القرآنية تعليم التاريخ منها، بل بناء الأفكار والمشاعر عليها في شتي المناسبات، وبمختلف الأساليب .

" ولا شك أن ذكر جانب من القصة في سورة لم يذكر في سورة أخري أثناء عرضها لتلك القصة نفسها، هو من سمات المنهج القرآني في القصة باقتصارها علي موطن القصة منها، واختلاف المناسبات التي تعرض فيها يسمح بإعادة ذكرها أو ذكر حلقة منها بأسلوب يلائم تلك المناسبة . وهو ميدان فسيح للتصوير الفني والقيم التعبيرية، وتفنن القرآن في المعاني باختلاف طرق أدائها وأساليب عرضها هو من آيات إعجازه البياني "[٢٨].

وتوزيع القصة الواحدة في القرآن الكريم في عدة سور هو من آثار خضوعها للغرض الديني، حيث تعرض بالقدر الذي يكفي لأداء هذا الغرض، ومن الحلقة التي تتفق معه، فمرة تعرض القصة من أولها، ومرة من وسطها، ومرة من آخرها، وتارة تعرض كاملة، وتارة يكتفي ببعض حلقاتها، وتارة تتوسط بين هذا وذاك، حسبما تكون العبرة في هذا الجزء أو ذاك، علي النحو التالي:

أ- نجد قصصاً تعرض منذ الحلقة الأولي: حلقة ميلاد بطلها، لأن في مولده عظة بارزة وذلك مثل: قصة آدم ( منذ خلقه ) وفيها مظهر لقدرة الله، وكمال علمه، ونعمته علي آدم وبنيه .. ومثل مولد " عيسي ابن مريم ": وهو يعرض بتفصيل كامل، ذلك أن مولده هو الآية الكبري في حياته، وحول هذا المولد قام الجدل كله،

وعنه تفرعت كل قضايا المسيحية قبل الإسلام وبعده... وقصة " مريم ": فقد نذرت لله وهي في بطن أمها، وتولي كفالتها زكريا، ثم رزقت منذ مولدها رزقاً حسناً من عند الله، فكانت " كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ "(آل عمران:٣٧)... ثم تطوي حلقاتها حتى تأتي حلقة ميلاد عيسي، وهي الحلقة المهمة الثانية في حياتها، وقصة " موسي ": لأن لمولده في عهد اضطهاد بني إسرائيل، وتذبيح الذكور من أطفالهم، ونجاته هو من ذلك مع وجوده بين آل فرعون أنفسهم ... قيمة خاصة في بيان رعاية الله له، وإعداده إعداداً خاصاً للمهمة التي سينهض بها، ثم تعرض من حياته حلقاتها ذات المغزي.. و " إسماعيل " و " إسحاق " تعرض حلقة مولدهما، لأن في هذا المولد عبرة . فأولهما رزقه إبراهيم علي الكبر، وأسكنه – علي الرغم منه – بجوار البيت المحرم، والثاني بُشِّر به وامرأته عجوز . وقد بلغ من الكبر عتياً – وكذلك يذكر مولد يحيي لزكريا بعد أن وهن منه العظم واشتعل الرأس شيباً"[٢٩]

ب- ونجد قصصاً أخري تعرض من حلقة متأخرة نسبياً: فإبراهيم تبدأ قصته فتي ينظر في السماء فيري نجماً، فيظنه إلهه، فإذا أفل قال لا أحب الآفلين . ثم ينظر مرة أخري فيري القمر، فيظنّه ربه، ولكنه يأفل كذلك، فيتركه ويمضي . ثم ينظر إلى الشمس فيعجبه كبرها، ويظنّها – ولا شك – إلهاً، ولكنها تخلف ظنه هي الأخرى، فيفيء إلى ربه الذي لا يُرى .. ويدعو أباه وقومه إلى هذا الإله الواحد فلا يجيبونه، فيحطم أصنامهم في غفلة منهم حيث يقولون: " قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ "( الأنبياء: ٦٠)، ويهمون بإحراقه فينجيه الله منهم: " قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ "( الأنبياء: ٦٩).

جـ- ثم نجد قصصاً لا تعرض إلا في حلقة متأخرة جداً: فنوح وهود وصالح ولوط وشعيب، وكثيرون غيرهم، لا تعرض قصصهم إلا عند حلقة الرسالة وهي الحلقة الوحيدة التي تعرض من حياتهم، لأنها أهم حلقة منها، والعبرة كامنة فيها[٣٠].

- وتوزيع القصة الواحدة في عدة سور من القرآن الكريم كان من دوافعه التناسق المعنوي والنفسي بين القصص التي يعرضها القرآن والسياق الذي يعرضها فيه، وانسجام عرضها في هذا السياق مع الغرض الديني والمظهر الفني سواء بسواء [٣١].

- فالله سبحانه وتعالى ذكر قصة قوم نوح، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، وموسي في سورة ( الأعراف، وهود، والشعراء ) ولم يذكر معهم قصة إبراهيم، وإنما ذكرها في سورة ( الأنبياء، ومريم، والعنكبوت، والصافات ).

والسرّ في ذلك أن تلك السور الأولي ذكر الله فيها نصر رسله بإهلاك قومهم، ونجاة الرسل وأتباعهم. وهذه السور لم يقتصر فيها علي ذكر من أهلك من الأمم، بل كان المقصود ذكر الأنبياء، وإن لم يذكر قومهم، ولهذا سميت سورة الأنبياء، فذكر فيها إكرامه للأنبياء، وبدأ فيها بقصة إبراهيم، إذ كان المقصود ذكر كرامته الأنبياء قبل " محمد "، و " إبراهيم " أكرمهم الله، وهو خير البرية، وهو أب أكثرهم، وليس هو أب نوح ولوط، ولكن لوط من أتباعه، وأيوب من ذريته، بدليل قوله تعالى في سورة الأنعام: " وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ " ( الأنعام:٨٤).

وأما سورة ( العنكبوت )، فأنّه سبحانه وتعالى ذكر فيها امتحانه للمؤمنين، ونصره لهم، وحاجتهم إلى الجهاد، وذكر فيها حُسن العاقبة لمن صبر، وعاقبة مَن كذّب الرسل، فذكر قصة إبراهيم، لأنها من النمط الأول.

وكذلك في سورة الصافات قال فيها: " وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ "( الصافات:٧١،٧٢،٧٣)، وهذا يقتضي أنها عاقبة رديئة، إما بكونهم غلبوا وذلوا، وإما بكونهم أهلكوا ولهذا ذكر قصة " إلياس " دون غيرها، ولم يذكر إهلاك قومه، بل قال " فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ "( سورة الصافات:١٢٧). وقد روي الله رفع " إلياس "، وهذا يقتضي عذابهم في الآخرة، فإن " إلياس " لم يقم بينهم، و " إلياس " المعروف بعد " موسي " من بني إسرائيل، وبعد " موسي " لم يهلك المكذبين بعذاب الاستئصال، وبعد "

نـوح " لم يهلك جميع النوع، وقد بعث الله في كل أمة نذيراً، والله سبحانه لم يذكر عن قـوم إبـراهيم أنهـم أهلكـوا، كما ذكر ذلك عن غيرهم، بل ذكر أنهم ألقوه في النار، فجعلهـا بـرداً وسلاماً، وفي هذا ظهور برهانه وآياته، حيث أذلهم ونصره، " فَأَرَادُوا بِـهِ كَـيْدًا فَجَعَلْـنَاهُمُ الْأَسْـفَلِينَ "( الصافات:٩٨) . وهذا من جنس المجاهد الذي يعـرض عدوه، والقصص الأول من جنس المجاهد الذي قتل عدوه، وإبراهيم بعد هـذا لم يقـم بيـنهم بل هاجر وتركهم، وأولئك الرسل لم يزالوا مقيمين بين أظهرهم حتـى هلكوا، ولم يوجد في حق " إبراهيم" سبب الهلاك، وهو إقامته فيهم، وانتظار العـذاب الـنازل، وهكـذا " محمد صلي الله عليه وسلم – مع قومه، لم يقم فيهم، بل خرج عنهم حتى أظهره الله عليهم بعد ذلك، و" محمد " وإبراهيم " أفضل الرسل، فـإنهم إذا علموا حصل المقصود، وقد يتوب منهم من تاب، كما جري لقوم " يونس "، فهـذا التناسـق الفني والموضوعي – والله أعلم – هو السرّ في أنه سبحانه لم يذكر قصة (إبراهيم) مع هؤلاء، لأنها ليست من جنس واقعتهم"[٣٢].

**فإن قيل: فما وجه الخصوصية بمحمد وإبراهيم بذلك ؟**

فالجـواب: أما حالة " إبراهيم " فكانت إلى الرحمة أميل، فلم يسع في هلاك قومه لا بالـدعاء ولا بالمقـام ودوام إقامة الحجة عليهم، وقد قال الله تعالى: " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَـرُواْ لِرُسُـلِهِمْ لَنُخْـرِجَنَّـكُم مِّـنْ أَرْضِـنَآ أَوْ لَـتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِـنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَـنُهْلِكَنَّ الظَّالِـمِينَ وَلَنُسْكِنَنَّـكُمُ الأَرْضَ مِـن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِـيدِ " (إبـراهيم: ١٣-١٤)، وكـان كـل قوم يطلبون هلاك نبيهم فعوقبوا، وقوم إبـراهيم وإن أوصلوه إلى العذاب، لكن جعله الله عليه برداً وسلاماً، ولم يفعلوا بعد ذلك ما يستحقون به العذاب ؛ إذ الدنيا ليست دار الجزاء العام، وإنما فيها من الجزاء مـا تحـصل به الحكمة والمصلحة، كما في العقوبات الشرعية، فمن أرادوا عداوة أحد من أتباع الأنبياء ليهلكوه فعصمه الله، وجعل صورة الهلاك نعمة في حقه، ولم يهلك أعـداءه بـل أخـزاهم ونـصره، فهـو أشـبه بإبراهيم عليه السلام، إذ عصمه الله من كـيدهم وأظهـره حتـى صارت الحرب بينهم وبينه سجالاً، ثم كانت له العاقبة فهو

أشبه بحال محمد - صلي الله عليه وسلم، فإن محمداً سيد الجميع، وهو خليل الله، كما أن إبراهيم عليه السلام خليله، والخليلان هما أفضل الجميع وفي طريقهما من الرأفة والرحمة ما ليس في طريق غيرهما[٣٣].

ومن دوافع توزيع القصة الواحدة في القرآن الكريم، بيان ما ليس بيّنًا في نفسه: ومنه قوله تعالى:

أ- في قصة لوط: " فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ " ( الحجر:٦٥)، فلم يستثن امرأته في هذا الموضوع، وهي مستثناة في المعنى بقوله في الآية الأخرى:

" فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ " (هود:٨١)، فأظهر الاستثناء في هذه الآية.

ب- في قصة ضيف إبراهيم:" إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ "( الحجر:٥٢)، اختصر جوابه لبيانه في موضع آخر: " إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ " ( الذاريات:٢٥).

جـ- في قصة " صالح " مع ثمود: " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ " ( النمل:٤٥)، تفسير هذا الاختصام ما قال في سورة أخرى: " قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ "( الاعراف: ٧٥).

د- وقوله تعالى في قصة نوح عليه السلام: " أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ " (القمر:١٠) بين في موضع آخر: " وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا " (الأنبياء:٧٧).

هـ- وقوله حكاية عن فرعون لعنه الله: " وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ " (سورة غافر من آية ٢٩ ). فرد عليه في قوله: " وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ " (هود:٩٧)

و- وقوله: " وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ " ( البقرة:٨٨) أي أوعية للعلم، فقيل لهم: " وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً "( الإسراء:٨٥).

ز- وجعل بعضهم من هذا قوله تعالى في قصة موسي عليه السلام: " قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ "( الأعراف:١٤٣). قال فإن آية البقرة وهي قوله: " حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً "( البقرة:٥٥)، تدل علي أن قوله، ولم يثبت في التوراة أنه سأل الرؤية إلا وقت حضور قومه معه، وسؤالهم ذلك [٣٤].

ومن هذا العرض يتقرر أن القصص القرآني له سماته التي تميّزه وله خصائصه الفنية التي ترقي به عن متناول المخلوقين، وأنه لم يلابسه شيء من الخيال القصصي، ولم يدخل عليه شيء غير الواقع، إذ هو ليس عملاً فنياً مستقلاً، في موضوعه، وطريقة عرضه، وإدارة أحداثه، كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة التي ترمي إلى أداء غرض فني مجرد . إنما هو – إلى جوار كونه عملاً فنياً – خاضع في موضوعه، وفي طريقة صوغه، وإدارة حوادثه لمقتضي الأغراض الدينية، ومع ذلك فإنه ليشتمل – مع قيامه على الحقائق المطلقة من ألوان الإثارة والتشويق ما لم يشتمل عليه غيره من القصص.

وبتعبير آخر نقرّر أن القصة القرآنية تخاطب العقل بأصدق منطق وأوضحه وهي في الوقت ذاته تخاطب الوجدان والمشاعر بأقرب حديث إليها وأحبه – كما هو الشأن في سائر التعبيرات القرآنية – إذ يجعل الجمال الفني أداة مقصودة للتأثير في الوجدان، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية، والوجدان الذي يدرك الجمال الفني الرفيع ويتأثر به يصبح وجداناً حسن الاستعداد لاستقبال المؤثرات الدينية والتأثر بها.

" ومن ثم كانت الوحدة في القصة القرآنية علي غير ما عهد المخلوقون من أدباء ونقاد، فهي وحدة في الموضوع، ووحدة في الجو، ووحدة في النسق، ووحدة في المنهج التأثيري، ووحدة في المسار القرآني علي عمومه، فالقصة في سور القرآن جزء منها متلاحم أتم التلاحم لا نحس تبايناً، ولا نجد افتراقاً، فالقصة في السورة مثل الآية فيها، تمثل اللبنة في البنية المحكمة القوية " [٣٥].

**ب- القصة الكاملة في القرآن الكريم:**

هناك قصص وردت في حلقة كاملة في موضع واحد في القرآن الكريم، ولم يتم توزيعها في حلقات علي سور القرآن الكريم مثل بقية قصصه، كقصة " البقرة التي أمر بنو إسرائيل بذبحها في " سورة البقرة "، وقصة أصحاب القرية في سورة " يس، وقصة نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب في سورة " ص "، وقصة " موسي والخضر، وكذلك قصة أصحاب الكهف " وصاحب الجنتين، وذي القرنين وغيرها، لكن الأمر يختلف في قصة يوسف للأسباب الآتية:

**أولاً**: انفردت قصة يوسف بسورة كاملة من طوال السور، سميت باسم " يوسف " الذي تدور حوله معظم أحداث القصة ... وهذا ما لم يكن لأية قصة أخري من قصص الأنبياء غير نوح عليه السلام، الذي سميت باسمه سورة من قصار السور، هي سورة نوح، علي حين أن بعض الأنبياء قد سُميت بعض السور باسمهم كسورة هود وسورة إبراهيم، ولكنها لم تكن خالصة للحديث عنهم، بل شاركهم في ذلك غيرهم من الأنبياء [٣٦].

**ثانياً**: جاءت قصة يوسف في معرض واحد في القرآن الكريم، وفي ثمان وتسعين آية، ابتداء من الآية الرابعة من السورة إلى الآية الواحدة بعد المائة .. وهذه ظاهرة لم تكن في قصة نبي من الأنبياء، حيث تتعدد المعارض، وتتوزع المشاهد في كل قصة، فالقصص القرآني – غير قصة يوسف – يرد حلقات، تناسب كل حلقة منها أو مجموعة حلقات موضوع السورة واتجاهها وجوها . وحتى القصص الذي ورد كاملاً في سورة واحدة كقصص هود وصالح ولوط وشعيب ورد مختصراً مجملاً. أما قصة يوسف فوردت بتمامها وبطولها في سورة واحدة، وهو طابع متفرد في السور القرآنية جميعاً..

هذا الطابع الخاص يتناسب مع طبيعة القصة، ويؤديها أداء كاملاً ... ذلك أنها تبدأ برؤيا يوسف، وتنتهي بتأويلها، بحيث لا يناسبها أن تكون حلقة منها أو جملة حلقات في سورة وتكون بقيتها في سورة[٣٧].

وقد علّل " الزركشي " ذلك بوجوه منها:

أ- ما فيها من تشبيب النسوة به، وتضمّن الإخبار عن حال امرأة ونسوة افتتن بأبدع الناس جمالاً، وأرفعهم مثالاً، فناسب عدم تكرارها لما فيها من الإغضاء والستر عن ذلك، وقد صحّح الحاكم في مستدركه حديثاً مرفوعاً: النّهي عن تعليم النساء سورة يوسف.

ب- إنها اختصت بحصول الفرج بعد الشدّة، بخلاف غيرها من القصص، فإن مآلها إلى الوبال، كقصة إبليس، وقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وغيرهم، فلما اختصت هذه القصة في سائر القصص: بذلك اتفقت الدواعي علي نقلها لخروجها عن سمت القصص.

جـ- إشارة إلى عجز العرب، كأن النبي صلي الله عليه وسلم قال لهم: إن كان من تلقاء نفسي تصديره علي الفصاحة، فافعلوا في قصة يوسف ما فعلت في قصص سائر الأنبياء "(٣٨).

أما " الأوسي " فيقول: " إنّ قصص الأنبياء إنما كررت لأن المقصود بها إفادة إهلاك من كذّبوا رسلهم، والحاجة داعية إلى ذلك مع كل موقف يتحدث فيه القرآن عن تكذيب الكفار للرسول – صلي الله عليه وسلم –، فلما ساق موقفاً من مواقف التكذيب ساق في أثره قصة منذرة بحلول العذاب لما حلّ بالمكذبين، وقصة يوسف عليه السلام لم يقصّد منها ذلك، وبهذا أيضًا يكون الجواب عن عدم تكرير قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين، وقصة موسي مع الخضر، وقصة الذبيح ".

" وقد اعتُرض بأن قصة آدم عليه السلام كُرّرت مع أنه ليس المقصود بها إفادة إهلاك من كذّبوا رسلهم: وأجيب بأنها وإن لم يكن المقصود بها إفادة ما ذكر إلا أن فيها من الزجر عن المعصية ما يجعلها أشبه ما تكون بتلك القصص التي كررت لذلك "(٣٩).

**ثالثاً**: إذا كان للمرأة مكان بارز في قصة يوسف، وإذا كان دور المرأة في تلك القصة هو الدور الذي يشتهيه الرجل منها، ويشوّقه الحديث الذي يعرض لوسائل

كيدها، وأساليب إغرائها، وشباك مغامراتها – فإن دورها في القصة لم يكن مستجلباً ليملأ فراغاً فيها.. أو ليلطِّف من جوّ المأساة التي ضمّت عليها، أو ليجدّد نشاط المتلقي لها ... وإنما كان حدثاً جارياً مع اتجاه أحداثها، في الصراع بين الخير والشر، فيما بين الناس عامة، وفيما بين الإنسان ونفسه خاصة ... وصدق القرآن في نقله للأحداث، وبلاغته في عرضها، هو الذي يعطي القصة القرآنية هذا الجلال، وتلك الروعة التي يستشعر المرء معها ما يستشعر العابد في محراب صلاته ضراعة وخشوعًا، وأن جلال الحق يرتفع بمشاعر الإنسان، ويسمو بمدركاته إلى حيث يعطي الإنسان من ذات نفسه للحق كل ما في وسعه من إيمان به وولاء له..

فالمرأة في القصص القرآني لا تستجلب لغاية غير العبرة والعظة ولا تأخذ مكاناً في القصة إلا حيث تكون درساً مستفاداً في الدعوة إلى الخير والعدل، والإحسان، وفي التنفير من الشر والبغي والعدوان (١٠).

والذي نجده في قصة يوسف من روعة البيان وجلال العرض، ومن سموّ بالعاطفة، واستعلاء بالنفس على الشهوات، وقيادتها إلى موقع الخير علي طريق مفروش بالأشواك، محفوف بالمكاره – نجده كذلك في قصة أصحاب الكهف، أو قصة موسي والعبد الصالح مثلاً، وفي كلتا القصتين لا يبدو وجه المرأة ولا يشار إليها من قريب أو بعيد..

رابعاً: في هذه القصة، كما هو الشأن في معظم القصص القرآني يتجلّى سلطان " القدر" حيث تجري الأحداث في مجري يري الناس منه ما يكرهون أو يحبون، حسب ما يحسبون ويقدرون، ثم تجئ الخاتمة علي غير ما حسبوا وقدّروا، إذ الذي حسبوه خيراً هو شر، وإذا الذي ظنّوه شراً هو خير، مصداقاً لقوله تعالى:" كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ"( البقرة:٢١٦).

خامساً: تتحرك الأحداث في قصة يوسف حركة مسايرة لحركة الزمن، حيث ينمو الحدث نمواً طبيعياً مع سير الأيام والليالي، كما ينمو الكائن الحي ويتطور مع

مسيرة الزمن... فالصغير يكبر والكبير يشيخ ويهرم، والعواطف الشابة الحارة الثائرة تبرد وتهدأ.. وهكذا تظهر بصمات الزمن على وجوه الناس، وعقولهم وقلوبهم، كلما خطا بهم الزمن خطوة إلى الأمام .. فالزمن عنصر له مكانه، وله وزنه وحسابه في تلك القصة"[1] .

**سادساً**: إن قصة يوسف هي القصة القرآنية التي جاء في صدرها قول الله تعالى: " نحن نقص عليك أحسن القصص"، ولذلك نجد من يستند على هذه المقدمة ويقول: " إن قصة يوسف – من حيث البناء القصصي – هي أجود قصة في القرآن، ولعله من أجل هذا عدّها القرآن من أحسن القصص حين قال:" نحن نقص عليك أحسن القصص ...."[2].

وهذا القول معناه أن غير قصة القرآن أقل جودة وأضعف فناً، وهو نقد وحكم علي القصص لا يتفق مع إعجازه وتحدّيه، لأن القرآن حين تحدّى العرب أن يأتوا بمثله لم يقف من مسائل التحدّي عند حدود غير القصص، لقد تحدى بالقرآن كله قصصاً وغير قصص، فقد أبطل هذا القول ذلك النقد حتماً، و إلا لجاء أحد كتاب القصص المحدثين المجيدين وعمد إلى قصة قرآنية غير قصة يوسف وجعلها أكثر فنية حسب المصطلح علية بين المحدثين، من كتاب القصة ويكون بذلك قد كسرّ التحدّي بالقصص القرآني الذي أنزل للبشرية في كل عصر، فإعجازه وتحدّيه لا يقتصر علي العرب، ولكنه يمتدّ إلى البشرية في كل العصور.

" والخطأ ومنشؤه كامن في الحكم علي القرآن بمعيار اصطلاحي لجودة القصص يشترط وحدة الموضوع وإحكام التصميم وجودة الحبكة والانتفاع بالحوادث الاستطرادية، والقرآن هو المرجع، وهو الحكم في كل ما تعرض له القرآن قصصاً أو غير قصص، فناً أو غير فن"[3] .

**سابعاً**: إن قصة يوسف تمثل الأنموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة، بقدر ما تمثل الأنموذج الكامل لهذا المنهج في الأداء النفسي والعقيدي والتربوي والحركي أيضاً.. ومع أن المنهج القرآني واحد في موضوعه وفي أدائه، إلا

أن قصة يوسف تبدو وكأنها المعرض المتخصص في عرض هذا المنهج من الناحية الفنية للأداء [٤٤]:

**أ- أشخاص القصة:**

أشخاص القصة هنا – علي طولها – يكادون لا يتجاوزون بيت يعقوب إلا بالقدر الذي تطوّرت به الأحداث حين أصبح بطل القصة بعيداً عن أهله، ومع ذلك نلاحظ أن الأشخاص يقدَّمون علي حسب الحاجة إليهم في القصة، فليسوا جميعاً علي مستوى واحد، فالمنهج في تقديم الأشخاص إن هو إلا منهج قرآني خاص به، يشفّ عن جانب من الإعجاز البياني، حيث يلتزم بتقديم الشخصية في الحدود التي يحتاجها دورها في القصة، وفي الوقت الذي تطلبها فيه، دون تقصير أو إطالة وتزيد[٤٥] .

إن القصة تعرض شخصية يوسف – عليه السلام – وهي الشخصية الرئيسة في القصة – عرضاً كاملاً في كل مجالات حياتها، بكل جوانب هذه الحياة، وبكل استجابات هذه الشخصية في هذه الجوانب وفي تلك المجالات، وتعرض أنواع الابتلاءات التي تعرضت لها تلك الشخصية الرئيسة في القصة، وهي ابتلاءات متنوعة في طبيعتها وفي اتجاهاتها.. ابتلاءات الشدة وابتلاءات الرخاء.. وابتلاءات الفتنة بالشهوة، والفتنة بالسلطان، وابتلاءات الفتنة بالانفعالات والمشاعر البشرية تجاه شتي المواقف وشتي الشخصيات .. ويخرج العبد الصالح من هذه الابتلاءات والفتن كلها نقياً خالصاً متجرداً في وقفته الأخيرة، متجهاً إلى ربه بذلك الدعاء المنيب الخاشع:

" رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ "( يوسف: ١٠١) .

وإلى جانب عرض الشخصية الرئيسة في القصة تعرض الشخصيات المحيطة بدرجات متفاوتة من التركيز، وفي مساحات متناسبة من رقعة العرض، وعلي أبعاد

متفاوتة من مركز الرؤية، وفي أوضاع خاصة من الأضواء والظلال.. وتتعامل القصة مع النفس البشرية في واقعيتها الكاملة، متمثلة في نماذج متنوعة: أنموذج يعقوب الوالد المحب الملهوف والنبي المطمئن الموصول.. وأنموذج أخوة يوسف وهواتف الغيرة والحسد والحقد والمؤامرة والمناورة، ومواجهة آثار الجريمة، والضعف والحيرة أمام هذه المواجهة، متميزاً فيهم أحدهم بشخصية موحدة السمات في كل مراحل القصة ومواقفها..

وأنموذج امرأة العزيز بكل غرائزها ورغائبها واندفاعاتها الأنثوية، كما تصنعها وتوجهها البيئة المصرية الجاهلية في بلاط الملوك، إلى جانب طابعها الشخصي الخاص الواضح في تصرفها وضوح انطباعات البيئة ..

وأنموذج النسوة من طبقة العلية في مصر، والأضواء التي تلقيها علي البيئة، ومنطقها كما يتجلّى في كلام النسوة عن امرأة العزيز وفتاها، وفي إغرائهن كذلك ليوسف وتهديد امرأة العزيز له في مواجهتهن جميعاً وما وراء أستار القصور ودسائسها ومناوراتها،كما يتجلّى في سجن يوسف بصفة خاصة .. وأنموذج " العزيز " وعليه ظلال طبقته، وبيئته في مواجهة جرائم الشرف من خلال مجتمعه، فتتضح في شخصيته طبيعة سمت الإمارة، ثم ضعف النخوة وغلبة الرياء الاجتماعي وستر الظواهر وإنقاذها، وفيه تتمثل كل خصائص بيئته.. وأنموذج " الملك " في خطفة يتوارى بعدها كما تواري العزيز في منطقة الظلال بعيداً عن منطقة الأضواء في مجال العرض المتناسق .. وتبرز الملامح البشرية واضحة صادقة بواقعية كاملة في هذا الحشد من الشخصيات والبيئات، وهذا الحشد من المواقف والمشاهد، وهذا الحشد من الحركات والمشاعر .. ومع استيفاء القصة لكل ملامح " الواقعية " السليمة المتكاملة وخصائصها في كل شخصية وفي كل موقف وفي كل خالجة .. فإنها تمثل الأنموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة، ذلك الأداء الصادق، الرائع بصدقه العميق وواقعيته السليمة .. المنهج الذي لا يهمل خلجة بشرية واقعية واحدة، فقد ألمت القصة بألوان من الضعف البشري، بما فيها لحظة الضعف الجنسي. ودون أن تزوّر – أي تزوير – في تصوير النفس البشرية بواقعيتها

الكاملـة في هـذه المواقـف، ودون أن تغفـل أيـة لمحـة حقيقية من لمحات النفس أو الموقـف، فإنهـا لم تـسف قـط لتنشئ مستنقعاً مقززاً للفطرة السليمة، وظلت القصة صورة نظيفة للأداء الواقعي الكامل في تنوع الشخصيات وتنوع المواقف (٤٦).

**ب- أحداث القصة:**

والواقعـية الـصادقة الأمـينة النظيفة السليمة في الوقت نفسه، لا تقف عند واقعـية الشخصيات الإنسانية التي تحفل بها القصة في هذا المجال الواسع، على هذا المستوي الـرائع، ولكـنها تـتجلّى كـذلك في واقعـية الأحـداث والـسرد والعرض وصـدقها وطبيعـتها، في مكانهـا وزمانهـا، وفي بيئتها وملابساتها.. فكل حركة وكل خالجـة وكل كلمة تجيء في أوانها، وتجيء في الصورة المتوقعة لها وتجئ في مكانها من مـسرح العـرض، متراوحة بين منطقة الظل ومنطقة الضوء بحسب أهميتها ودورها وطبيعة جريان الـحياة بها..

حتـى لحظـات الجـنس في القـصة ومـواقفه أخذت مساحتها كاملة – في حدود المـنهج النظـيف اللائـق " بالإنـسان " في غير تزوير ولا نقص ولا تحريف للواقعية البـشرية في شـمولها وصـدقها وتكاملهـا – ولكن استيفاء تلك اللحظات لمساحتها المتناسـقة مع بقية الأحداث والمواقف لم يكن معناه الوقوف أمامها كما لو كانت هي كل واقعية الكائن البشري. وكما لو كانت هي محور حياته كلها (٤٧) فلا شك أن هناك مواقف كثيرة كانت بين امرأة العزيز وفتاها، ولكن شيئاً من ذلك لا علاقة له بمسار القـصة، ولذلك أسدل عليه الستار، حتى يخيّل للناظر أن موقف المراودة لا غير هو الـذي كان ... كما أن البيان القرآني يتجاوز الحديث عن تسرّب نبأ المراودة من قصر العزيـز إلى نـساء المديـنة . إذ لا يـضيف ذلـك للقصة جديداً، بل إنه يعترض تحرّك القـصة في مـسارها الطبيعـي، فهـي أحداث ومواقف استطرادية لا تتعلق بالحدث الـرئيس، ولا تـضيف إلـيه مـا ينمّـيه ويطـوّره في الـسبيل القصصي، فالفنّية البيانية ترفض الاشتغال بأي شيء من ذلك في هذه القصة(٤٨).

وعـلي العكـس مـن ذلـك، فـإن كل ما تناولته القصة والأحداث والمواقف يمد

الحـدث الـرئيس بزاد ينمو به في مساره المخصوص به، فتنشئة الغلام في بيت العزيز تقـوّي آصرة المـرأة بـه، بـما يطمّعهـا فـيه، ويغـريها بـه، ويوقعه في محنة تصهر نفسه وتخلّصها من أوشابها وأوضارها، حيث يصلّ به تماسكه أمامها إلى السجن وظلماته، وهـو صـابر عـلى كـل مـا يعانـيه دون أن يستسلم لدواعي الخيانة، تمهيداً لأن يتولّى أخطـر منـصب في الدولـة في أعـصب وقـت تمـرّ بـه البلاد.. فتماسك يوسف أمام المـراودة والإصرار علـيها، والـتهديد بسببها لا تهدف القصة من ورائه إلى بيان عفّة يوسـف، فهذا غرض جانبي لا تقوم عليه لذاته، وإنما هي تهدف إلى أن هذا الموقف اليوسفي رشّحه لأن يكون على خزائن الأرض، لأنه كما قال للملك- حفيظٌ عليم، وقـيامه عـلى خـزائن الأرض مـنحه فرصـة الالتقاء بإخوته القادمين للحصول على الـزاد.. وهكذا تحرّكت القصة من هذا المنطلق إلى نهايتها.. فتأبّي يوسف علي الخيانة ليس خصوصية له؛ إذ جميع الأنبياء والمرسلين صفوة مختارة من بين الناس، يتميزون عـلي غـيرهم باشـتمالهم علي صفات الخير جميعها، وتأبيهم علي صفات الشر جميعها، فليس يوسف في ذلك فلتة، لكن البيان القرآني ركز في قصة يوسف علي تلك الصفة لأنها تسلم إلى الأحداث التالية وتنميها، لتصل إلى تحقيق رؤياه التي رآها في طفولته [٤٩] . فهـناك حـبكة بين التقدمة للقصة والتعقيب عليها، الذي يواجه تكذيب قريش بالوحـي إلى رسـول الله – صـلي الله علـيه وسلم – بتقرير مأخوذ من هذا القصص الذي لم يكن رسول الله – صلي الله عليه وسلم – حاضراً وقائعه:

" ذَلِـكَ مِـنْ أَنـبَاء الْغَـيْبِ نُوحِـيهِ إِلَـيْكَ وَمَـا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ "( يوسف:١٠٢).

وهذا التعقيب يترابط مع التقديم للقصة في الاتجاه ذاته:

" نَحْـنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ "( يوسف:٣).

والـتقديم والتعقيب علي هذا النحو يؤلفان مؤثراً موحياً من المؤثرات الكثيرة في سـياق القـصة، لتقريـر الحقـيقة الـتي يعرضانها، وتوكيدها، في مواجهة الاعتراض

والتكذيب.. وما يسمي بالعقدة الفنية واضح في القصة، فهي تبدأ بالرؤيا يقصّها يوسف علي أبيه، فينبئه أبوه بأن سيكون له شأن عظيم، وينصحه بألا يقصّها علي إخوته كي لا يثير حسدهم فيغريهم الشيطان به فيكيدون له ... ثم تسير القصة بعد ذلك، وكأنما هي تأويل للرؤيا ولما توقعه يعقوب من ورائها حتى إذا اكتمل تأويل الرؤيا في النهاية أنهي السياق القصة، وبذلك تجئ الخاتمة فتحلّ العقدة حلاً طبيعياً لا تعمّل فيه ولا اصطناع(٥٠).

وهكذا تتلاحم مواقف القصة ومشاهدها تلاحماً عفوياً طبيعياً، لا قلق فيه، ولا اصطناع، في أحداثها ولا اضطراب في تتابعها، ولا انحراف في مسارها، بحيث لا نعثر في حياة يوسف علي حدث يفيد تلك القصة إلا وجدناه في مكانه منها بالقدر الذي يحتاجه البناء القصصي.

**ثامناً: الجانب النفسي في القصة:**

من المناسب القول إنّ قصة يوسف في القرآن هي قصة الشخصية والأحداث معاً، فهي لا تسجل واقعاً فحسب، ولكنها تنتصر للقيم الإنسانية الجديرة بالخلود، إنها (٥١) تنتصر للإيمان، للصبر، للعفاف، للأمانة، للإخلاص ..

وقد أبرزت صراع النفس أملاً في الحظوة، أو إشباعاً لظمأ الحبّ، وقام بالأدوار فيها شخصيات متباينة في السنّ، وفي المكانة الاجتماعية . ولكل منها طابعها الخاص وفق التربية والتجارب التي مرت بكل منها: كالبراءة، والحسد، والعلم، والحكمة .

" وهكذا فإن الدارس لهذا القصة في القرآن يستطيع أن يبرز شحنات نفسية من أبطال القصة، ومن بعض كلماتها وإشاراتها، فنحن نلحظ كلمة الصبر مثلاً، كانت دائماً على لسان يعقوب، والاستعاذة من الظلم على لسان يوسف، وتوكيد الإيمان على لسان إخوته . كما نلحظ أن في الإمكان وضع عناوين لبعض السلوك الذي فرط من شخصياتها . كالتّبرير والإسقاط والكذب والغيرة، والقلق، والإحساس بالذنب، ونحو ذلك من الحيل اللاشعورية التي يلجأ إليها الإنسان في معاملاته النفسية، والتي يسميها علم النفس " آيات عقلية "، يغالب بها المرء إحباطه وقلقه وتوتره الناشئ عن فشله، وهو يحاول تحقيق رغباته "

فإخوة يوسف مثلاً ظلوا ضحايا الكبت الذي عانوه، كي يخفوا رغبتهم في التخلّص من يوسف، حتى يخلو لهم حبّ أبيهم، ولكنهم كانوا يفشلون في إخفائها وكبتها، بل كثيرا ما تبدو فيما يصدر عنهم من مواقف أو كلمات ضد يوسف، مما جعل يعقوب يشك في حسن نيّاتهم عندما دعوا يوسف أن يلعب . فقال لهم:

" وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ " ( يوسف:١٣ )

وكان من نتيجة هذا الكبت ومعاناته أن انحرفوا بتفكيرهم .. فكل ما كان يهمّهم تحقيقه هو أن يحولوا بين يوسف وأبيه، فاتّفقوا على قتله، وتلطيخ قميصه بالدم، وادّعاء أن الذئب أكله لما ذهبوا يتسابقون وتركوه عند متاعهم . ولكن التلفيق كان واضحا، لأن القميص لم يكن ممزقا بآثار أسنان الذئب، مما جعل يعقوب لا يصدقهم . ولهذا كان يدعوهم دائما إلى أن يتقصّوا آثار أخيهم، ولو أنه صدّقهم في دعواهم لما أصرّ على أن يقتفوا آثاره ..

وقد وقعوا في حالة ( التبرير ) كما يفعل الذئب، إذ يعمد إلى تفسير سلوكه ليبيّن لنفسه وللناس أن لسلوكه هذا أسبابا معقولة، فهم يقولون: " قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ " (يوسف:١٧) .

وإذا كان " الإسقاط " هو حيلة يسقط بها المرء نقائصه وعيوبه على الآخرين .. ويهمه بالدرجة الأولى أن يلصقها بمن يظن أنه ينافسه مباشرة، وإذا كان هذا هو مفهوم الإسقاط في علم النفس، فإن القرآن الكريم روى ذلك عن إخوة يوسف،حينما دسّ يوسف صاع الملك في متاع أخيه، وألقى القبض عليه بتهمة السرقة ليستبقيه، دون أن يكشف لهم عن شخصيته . إذ تقول الآية الكريمة على لسانهم:

" إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ " ( يوسف:٧٧)

ولو استقصينا لوجدنا في السورة آيات أخرى تتحدّث في بساطة عن أدقّ النظريات لعلم النفس الحديث (٤٢).

**تاسعاً: الإعجاز البياني في القصة:**

أن المتأمل في بناء القصة يجد أن التلازم بين أحداثها ومواقفها و محورها، ليس هو مظهر الإحكام والتناسق في البناء القصصي فحسب، بل يجد أن من ذلك – كذلك – التلاؤم بين الأحداث والمواقف وبين العبارات البيانية، فالعبارة القرآنية تؤدي في ذلك المجال دوراً مهماً، بحيث لا تنفصل عبارة واحدة عن موقعها، فهي بمعناها وإيماءاتها وظلالها كيان حيّ في جسم القصة النابض:

١- نلمس ذلك في نداء يوسف أباه في مبتدأ القصة حيث كان غلاماً صغيراً، بقوله: يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً ... " وفي خاتمة القصة حيث كان رجلاً مكتملاً مسئولاً بقوله: " يا أبت هذا تأويل رؤياي ..." فالتاء توحي بتعلق يوسف بأبيه، وما يكنّه له من حبّ وودّ لا يتأثران بمرور الزمان ولا بتغيّر الأحوال، فيوسف عزيز مصر أمام أبيه هو يوسف الطفل الذي يقصّ رؤياه على أبيه. وفارق بين يوسف في ذلك وبين إخوته الذين شابت عاطفتهم نحو أبيهم شوائب المادة فلم يروا فيه سوي أب فقالوا: ... يا أبانا استغفر لنا..." وبذلك فإننا مع يوسف نكاد نري عاطفة البنوة شاخصة محسوسة.

٢- ونلمس ذلك في الفجوة بين حديث الابن مع أبيه وتآمر الإخوة التي تحدثها " لقد " في قوله تعالي:" لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين .." فبالإضافة إلى معناها اللغوي الذي يمنحه التعبير من تحقيق وتأكيد لما يليها من أحداث تهيّئ الذهن إلى أن هناك تغيراً في العواطف البشرية وانتقالاً من الحبّ الأبوي الخالص إلى غيرة الإخوة وتحاسدهم المتمثلين في تآمرهم علي يوسف، وتومئ إلى أن هناك مشهداً في القصة خطيراً يوشك أن تبدأ أحداثه (٥٣)

٣- ونلمس ذلك في قوله تعالى:" قال قائل منهم ..." فإسناد القول إلى قائل من الإخوة بدلاً من إسناده إلى واحد منهم أو نحو ذلك، يومئ إلى أن هذا القول كان في أثناء نقاش، وأخذ ورد بين الإخوة فيما يصنعونه للتخلّص من يوسف، فهو قول مسبوق، بأقوال، صدر من بعض القائلين.

٤-ونلمس ذلك في قوله تعالى على لسان هذا القائل من إخوة يوسف: " ... إن كنتم فاعلين "، فتعليق رأيه على هذا الشرط يوحى بأنه غير موافق على التخلّص من يوسف، وإنما هي الاستجابة لرأى الأغلبية، والإذعان عن غير اقتناع ..

٥- ونلمس ذلك في عبارة يوسف: " معاذ الله إن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ... " .. ولم يقل: إلا من سرق، فأتى بالعبارة الدقيقة التي تؤدى الغرض منها معرض الحديث، والتي لا يخرج بها يوسف على الواقع المجهول، وهى براءة أخيه من السرقة، فعبارة " من وجدنا متاعنا عنده " لا تنفي التهمة فتكشف خطة يوسف، ولا تثبتها فيكون متجنيًا على برئ ..

٦-ونلمس ذلك في قوله تعالى: " فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه . ." حيث أُقحمت ( أن ) بين ( لما )، و ( جاء )، لتضيف إلى المضمون اللغوي إيحاءً بأن هذا الحديث الغريب المعجز كان متوقعا " فلما أن جاء البشير " فكأنّ هناك من ينتظر هذا المجيء، فلما تحقق ذلك المنتظر ترتب عليه ما ترتب من إلقاء البشير قميص يوسف على وجه أبيه، ويرشح هذا الإيحاء أن يعقوب كان يحسّ في داخله بشيء من ذلك، فهو القائل لبنيه حين فصلت العير: " إنى لأجد ريح يوسف " فالتوقع كان موجودا، ولا يناسب ذلك الحال تعبيرا عما حدث بدون ( أن )، كما أن مجيء ( أن) في الجملة يمدها بإيحاء آخر يكشف عن طول السفر وبُعد مابين يوسف وأبيه، فزمن المجيء ليس مستمرا ولكنه مقطوع لطوله، فهو مراحل، وكلمة ( أن ) هي التي تعطى هذا الإيحاء ... " فلما أن جاء البشير "، فالجملة بدون ( أن ) لا تحمل هذا الإيحاء،ومن ثمّ كانت ( أن ) هنا ضرورية لإعطاء المتلقي تصويرا للفعل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف ومجيئه.

وهكذا يتقرّر لدى من يتأمّل البيان القرآني أن هناك وحده شاملة تسري في خلال القصة، بحيث لا تنبو فيها عبارة واحدة عن مسار القصة، ولا يشذ فيها موقف واحد عن المقصد منها، وبحيث لا يفتقد المتأمل فيها من المؤمنين أسباب الهدى والرحمة .

**عاشرا: ومن لطائف التناسق:**

في الأداء القرآني في هذه القصة، تكرر عبارات معينة تؤلف جزءا من جو القصة وشخصيتها الخاصة [٥٥] ، ومن نماذج هذه اللطائف:

١ – ذكر العلم كثيرا، وما يقابله من الجهل وقلة العلم في مواضع شتى

–" وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ".

–" وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ "

–" وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ " .

– فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ " .

–" قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي " .

–" قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ " .

–" يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ " .

– " وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ "

– " ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ " .

– " قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ "

–" وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ " .

–" قَالُواْ تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ " .

- " قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ " .

-" فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللهِ " ..

-" وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ " .

- " عَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ "

- " قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ "

- " قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ".

-" قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ " .

-" رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ "

وهي ظاهرة بارزة تلفت النظر إلى بعض أسرار التناسق ولطائفه في قصة يوسف(٤٤)

٢ – ومن لطائف التناسق أن يذكر يوسف الحصيف الكيّس اللطيف المدخل، صفة الله المناسبة ... " اللطيف " .. في الموقف الذي يتجلّى فيه لطف الله في التصريف:

" وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ " (يوسف: ١٠٠).

وهكذا بدأت قصة يوسف وانتهت في سورة واحدة، وذلك لأن طبيعتها تستلزم هذا اللون من الأداء . فهي رؤيا تتحقق رويدًا رويدًا، ويومًا بعد يوم، ومرحلة بعد مرحلة . فلا تتم العبرة بها – كما لا يتمّ التنسيق الفني فيها – إلا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها . وإفراد حلقة واحدة منها في

موضـع لا يحقّق شيئا من هذا كله كما يحققه إفراد بعض الحلقات في قصص الرسل الآخرين، كحلقة قصة " سليمان " سبأ، أو حلقة قصة مولد " مريم " أو حلقة قصة مـولد " عيـسى "، أو حلقـة قـصة " نـوح " والطوفان ... إلخ فهذه الحلقات تفي بالغرض منها كاملا في مواضعها، من بدئها إلى نهايتها وصدق الله العظيم:

" نَحْـنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ " ( يوسف:٣).

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، جـ ١، ص ٥٥.

(٢ ) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٢٥.

(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن، ص ٥٥.

(٤) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٢٦.

(٥ ) سورة القمر من آية ١٧. وانظر الزركشي: البرهان. جـ٣. ص.

(٦ ) في قوله تعالى في سورة طه آية ٢٠" فألقها فإذا هي حية تسعي".

(٧ ) في قوله تعالى في سورة الأعراف آية ١٠٧: " فألقي عصاه فإذا هي ثعبان مبين "

(٨) انظر: الزركشي، البرهان. ج٣. ص ٢٦-٢٨.

(٩ ) الخطابي: بيان إعجاز القرآن. ص ٥٢.

(١٠) القاضي عبد الجبار: المغني ص ٤٠٠. تحقيق: أمين الخولي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م.

(١١) مصطفي صادق الرافعي: إعجاز القرآن، ص ١٩٤.

(١٢) المرجع السابق، ص ١٩٥.

(١٣) أبو هلال العسكري: الصناعتين، ص ١٤٤، طبعة أولي، القاهرة. وهو قول صحيح في الجملة، بيد أنهم اخطأوا وجه الحكمة فيه، فإن اليهود لم يكونوا من الغلظة والجفاء والاستكراه بحيث وصفوهم، فقد كان في اليهود شعراء فصحاء كالسموءل وكعب الأشرف وغيرهما، وكان لشعر اليهود باب متميز في الرواية بعد الاسلام. والعرب يعدون اليهود منهم وإن كانت الدار واحدة .. والخطاب في القرآن كان يسمعه العرب واليهود جميعاً، فلا هؤلاء ينكرون من أمره ولا أولئك.

انظر: مصطفي صادق الرافعي: إعجاز القرآن، ص ١٩٥.

(١٤) قارن سورة الشعراء: الآيات ٦٧و ١٠٣و١٢١و١٣٩و١٥٨و١٧٤و١٩٠.

(١٥) د. درويش الجندي: النظم القرآني في كشاف الزمخشري، ص ٢، طبعة نهضة مصر ١٩٦٩.

(١٦) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ١١٦.

(١٧) د. محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم، ص ٣٤.

(١٨) المرجع السابق ك ص ١٩٧.

(١٩) المرجع السابق: ص ١٩٧.

(٢٠) د. السيد تقي الدين: من الوجهة الأدبية في دراسة القرآن الكريم، ص ١٧٤.

(٢١) المرجع السابق، ص ١٧٤.

(٢٢) سعد الدين التفتزاني: تهذيب المنطق. ص ١٥٦ - مصر ١٣١٥هـ.

(٢٣) د. حفني محمد شرف: إعجاز القرآن البياني، ص ٣٠٦.

وانظر ايضاً: سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٢٨-١٢٩.

(٢٤) سيد قطب: في ظلال القرآن، جـ١. ص٧١.

(٢٥) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٣٨ -١٣٩

(٢٦) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٣٩ - ١٤١.

(٢٧) المرجع السابق، ص ١٤٢.

(٢٨) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٥٠٧.

(٢٩) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٣٤-١٣٥.

(٣٠) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ١٣٦.

(٣١) المرجع السابق. ص ٧٦.

(٣٢) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، المجلد الثالث، ص ٣٠ و ٣١.

(٣٣ ) المرجع السابق: ص ٣٢.

(٣٤) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، المجلد الثاني، ص ١٩٤ - ١٩٥.

(٣٥) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ١٦٢.

(٣٦) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ٦٤٠

(٣٧) سيد قطب: في ظلال القرآن، جـ ٤، ص ١٩٥١.

(٣٨) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، جـ ٣، ص ٢٩ - ٣٠.

(٣٩) د. فتحي عبد القادر: من بلاغة القرآن الكريم في سورة يوسف عليه السلام. ص٤٤، ط١ . مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٩٨٥.

(٤٠ ) عبد الكريم الخطيب: قصتا آدم ويوسف عليهما السلام، ص ٤٧.

(٤١ ) المرجع السابق: ص ٤٨.

(٤٢ ) د. محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم، ص ٣١٤.

(٤٣) د. محمد أحمد الغمراوي: الإسلام في عصر العلم، ص ٢٥٣.

(٤٤ ) سيد قطب: في ظلال القرآن،جـ٤، ص ١٩٥١.

(٤٥ ) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ٨٤-٨٥.

(٤٦) سيد قطب: في ظلال القرآن. جـ ٤، ص ١٩٥٢.

(٤٧ ) المرجع السابق. ص ١٩٥٩.

(٤٨ ) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ٩٢.

(٤٩) المرجع السابق: ص ٩٣.

(٥٠) سيد قطب: في ظلال القرآن، جـ ٤، ص ١٩٦٥.

(٥١)د. التهامى نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٥١٤ و ٥١٦ .

(٥٢) د. التهامي نفرة: سيكولوجية القصة في القرآن. ص ٥١٧.

(٥٣) د. إبراهيم عوضين: البيان القصصي في القرآن الكريم، ص ٩٦-٩٨.

(٥٤) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٤، ص ١٩٦٦ .

(٥٥) المرجع السابق، ص ١٩٦٧ .